بسم الله الرحمن الرحيم
يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ

الصادقين

الإسلام محتاج الى جميع أبنائه

الجمعة ٣ ربيع الثاني ١٤٤٧ هـ / ٢٦ ايلول ٢٠٢٥ م العدد ٢٦٠

نشرة تصدر عن المكتب الاعلامي متخصصة بنقل أحاديث وخطابات وفتاوي وأخبار سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: ١) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الأعراف: ٨٥)

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (عبس: ١) تنزيه رسول الله (ﷺ) (١)

قال تبارك وتعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (عبس: ١-١١).

روى الشيخ الصدوق بسنده عن معاوية بن وهب عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من قرأ سورة عبس وتولى، وإذا الشمس كورت، كان تحت جناح الله من الجنان وفي ظل الله وكرامته، في جنانه، ولا يعظم ذلك على الله إن شاء الله)(٢)، وروى الطبرسي في مجمع البيان عن أبيّ بن كعب عن النبي (ﷺ) قال: (من قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر)(٣)، وروى في تفسير البرهان ذلك في من أكثر قراءتها.

أقول: كما ذكر الحديث الأول فان هذا الجزاء ليس كثيراً على من أكثر قراءة هذه السورة وتدبّر معانيها وطبقها في حياته كما هو المفروض، فأكرم الفقراء وذوي الابتلاءات الخاصة كالأعمى المذكور وأقبل عليهم، وهو معنى ورد في الأحاديث الشريفة كما في الكافي بسنده عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (ﷺ): من أكرم أخاه المسلم بكلمة يلطفه بها وفرّج عنه كربته لم يزل في ظل الله الممدود عليه الرحمة ما كان في ذلك)(٤).

أقول: خصوصاً إذا كان من الدعاة إلى الله تبارك وتعالى وحملة القرآن فقد تضمنت السورة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٣-١٦)، روى الفضيل بن يسار عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة)(٥).

(عبس) أي انقبض وبان الامتعاض على وجهه غضباً لحصول أمر يكرهه، والحديث عن الفاعل بألفاظ الغائب حفظاً لكرامته أو تصغيراً لشأنه لعدم استحقاقه الخطاب المباشر، ولان المهم هو بيان الحالة وعلاجها من أي شخص صدر الفعل (وتولى) أي أعرض بوجهه ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ وسبب ذلك أنه حضر لديه أعمى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ ثم وجّه خطابه إلى ذلك البعيد المقصود بضمير الغائب بالعتاب والتوبيخ والزجر عن هذا التصرف السيئ مع الأعمى من دون أن تعرف سبب إقباله عليك لاحتمال أن هذا الأعمى حضر طالباً منك أن يتعلم كيفية تزكية نفسه وتطهير قلبه والتقرب إلى الله تبارك وتعالى. ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أو ليستفيد من مواعظك وكلمات ربك التي تقرأها فيتذكر ما يجب عليه فعله لكي يفوز في الآخرة، فكيف يجوز حينئذ الصدّ عنه والإعراض. ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ زيادة في التوبيخ، بأنه إذا جاءك الغني كثير المال الذي له جاه في المجتمع ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ فإنك تُقبل عليه بانشراح وتُحسن استقباله ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ ولا يهمّك أن يكون مجيئه لأجل أن يزكي نفسه ويتعلم ما يرضي الله تبارك وتعالى أو لا، إذ المهم عندك أنه غني، أو يكون المراد ان وظيفتك إرشاد الناس وتذكيرهم ولا يجب عليك الإصرار على أن يكونوا صالحين بحيث تتولى عن الأعمى لتحقيق هذا الغرض، ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ أما من قصدك ساعياً للخير ورضوان الله تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ الله عزوجل ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ فإنك تهمله وتنشاغل عنه بأمور أخرى، وهذا تصرف مخالف لتربية الله تبارك وتعالى، ثم يأتي الموقف العنيف: ﴿كَلَّا﴾ زجر وردع عن هذا الفعل مقرون ببيان ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ فإن وظيفة القرآن التذكير بالله تعالى واليوم الآخر ومحاسن الأخلاق التي تقتضيها الفطرة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ وما عليك إلا البلاغ والتذكير والتعليم والإنسان مخيّر في اختيار أحد الطريقين.

فالآية الكريمة تنهى عن حالة موجودة في المجتمعات التي تسود فيها قيم الجاهلية سواء في الأمم السابقة أو المعاصرة حيث تختلف معايير تقييم الأشخاص وإعطائهم المكانة التي يستحقونها، فيكرمون الذي يكون عنده مال كثير وموقع اجتماعي ويأتي في رتل من السيارات الحديثة وعليه ثياب مزركشة زاهية، أو له اتباع يتسابقون في خدمته، أما الفقير الذي يرتدي ثياباً متواضعة أو يكون في جسده عاهة فإنه يُطرد ولا مكان له بينهم، وهذا التصرف مرفوض وقبيح في نفسه وإن لم يؤد إلى إيذاء الفقير وشعوره بالإهانة والتحقير، لان المعني بالآية كان اعمى فلم يشاهد اعراض العابس واشمئزازه، ويزداد هذا الفعل قبحاً عندما يصدر من قادة الإسلام لأنه سيؤدي إلى مداهنة أهل الباطل ولا لشيء إلا أنهم أصحاب ثروة وجاه.

وقد أدى هذا السلوك الجاهلي إلى الطبقية وعدم المساواة وإلى شعور الأغنياء المترفين بالاستعلاء على الطبقتين المتوسطة والفقيرة والتميّز عنهم وإستغناء المترف عنهم بما عنده من ثروة وجاه، وهذا يولّد عنده شعوراً بأنه هو الحق فيستغني حتى عن سماع النصيحة والموعظة، ولايصدّق إمكان أن يكون هؤلاء الضعفاء المحرومون على الحق ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ (الأحقاف: ١١) ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ (ص: ٦٢).

وقد زجرت الآيات التالية بقوة هذا السلوك الجاهلي وذمّت صاحبه ودعت عليه بالموت ووعظته بالالتفات إلى أصله المهين، قال تعالى ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ (عبس: ١٧-٢٣).

إن هذا السلوك الجاهلي مخالف لمقياس التقديم والتكريم في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الذي هو العلم النافع والعمل الصالح المقرونين بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، اما الغنى والفقر ونقص الأعضاء ونحو ذلك فأنها لاتغيّر من حقيقة الإنسان.

من هذا يتضح الإساءة الكبيرة التي ارتكبها رواة العامة ومفسروهم بإجماعهم بحسب الفخر الرازي وتفسير القرطبي حينما قالوا أن المعني بهذه الآية والمخاطب بها هو رسول الله (ﷺ)، وأنها نزلت في رسول الله (ﷺ) والأعمى هو عبد الله بن أم مكتوم - وهو قرشي من بني عامر بن لؤي وكان مؤذناً للرسول (ﷺ) ومن السابقين إلى الإسلام في مكة - (أخرج الترمذي وحسّنه وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت: أنزل سورة عبس وتولى في ابن أم مكتوم والأعمى أتى رسول الله (ﷺ) فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني وعند رسول الله (ﷺ) رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله (ﷺ) يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول أترى بما أقول بأساً فيقول لا، ففي هذا أنزلت)(٦).

أقول: ورووا مثلها عن ابن عباس وآخرين، وورد في بعضها أن الجالسين عند النبي (ﷺ) كانوا الوليدين المغيرة وعتبة بن ربيعة وأبا جهل وأمية بن خلف وأن النبي (ﷺ) خشيَ إن أقبل على ابن أم مكتوم أن يقولوا أن أصحابه العميان والفقراء والعبيد وكان (ﷺ) طامعاً في هدايتهم إلى الإسلام.

وفي نسبة هذا الفعل إلى رسول الله (ﷺ) تجاوز على مقامه الرفيع، وكفران لنعمة النبي (ﷺ) تصديقاً لقول أمير المؤمنين (عليه السلام) (كان رسول الله (ﷺ) مكفراً لا يشكر معروفه ولقد كان معروفه على القرشي والعربي والعجمي، ومن كان أعظم معروفاً من رسول الله (ﷺ) على هذا الخلق، وكذلك نحن أهل البيت مكفرون لا يشكرون وخيار المؤمنين مكفرون لا يشكر معروفهم)(٧).

ولا أدري كيف ساغ لهم نقل هذه الروايات التي لا تنسجم مع أخلاق النبي (ﷺ) وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفها بالعظمة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) وقد أرسله رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) والرحمة تقتضي التواضع لضَعَفة الناس والإشفاق عليهم ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩) ووصفه الله تعالى بأنه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) وأدّبه ربه على التواضع للمؤمنين، لقوله تعالى ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٥) وقوله تعالى ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (الحجر: ٨٨ - ٨٩) وأمره الله تبارك وتعالى بمجالسة المؤمنين والإقبال عليهم وعدم مجاملة المشركين على حسابهم ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨) ونهاه ربه عن طرد المؤمنين والإعراض عنهم ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٢) وأمره بالإعراض عن المشركين ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤).

وكيف ينسب هذا الفعل المستهجن إلى النبي (ﷺ) الذي كان يمقت من يصدر منه مثله، روى الشيخ الكليني بسنده في الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (جاء رجل موسر إلى رسول الله (ﷺ) نقي الثوب فجلس إلى رسول الله (ﷺ) فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس إلى جنب الموسر فقبض الموسر

التتمة في الصفحة الرابعة

(١) درس التفسير الأسبوعي يوم الأربعاء ١٧ ربيع الأول / ١٤٤٧هـ الموافق: ١٠/ ٩/ ٢٠٢٥م، وكان بمناسبة ميلاد رسول الله (ﷺ). (٢) ثواب الأعمال: ص١٢١.
(٣) مجمع البيان: ج ١٠ / ص ٢٦٣. (٤) الكافي: ج ٢ / ص٢٠٦. (٥) الكافي: ج ٢ / ص ٦٠٣. (٦) الدر المنثور: ٨ / ٤٦١.
(٧) علل الشرائع: ج ٢ / ص ٥٦٠ / باب ٣٥٣ / ح٢، راجع في شرحه تفسير (من نور القرآن) عند قوله تعالى ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ (الأنبياء: ٩٤) وفي كتاب (النبي (ﷺ) والعترة في القرآن الكريم: ٢٠١).

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: ١) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾(١٥) (الأعراف: ٨٥)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (المطففين: ١-٥).

روى الشيخ الصدوق (رضوان الله تعالى عليه) في ثواب الأعمال بسنده عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من قرأ في الفريضة ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ أعطاه الله الأمن يوم القيامة من النار ولم تره ولا يراها ولم يمر على جسر جهنم ولا يحاسب يوم القيامة)(١٦).

أقول: وهي نتيجة طبيعية تحصل بفضل الله تعالى لمن تدبّر في السورة واتعظ بما فيها من الصور المعبّرة بإيقاعات قوية عما يجري يوم القيامة من تنعم للأبرار يحفّز الإنسان على فعل الخير وسلوك طريق الصلاح، ومن شقاء للمجرمين يوجب الارتداع عن المعاصي.

﴿وَيْلٌ﴾ إخبار بعذاب شديد وهلكة، ويستعمل أحياناً للدعاء بذلك وإختاره صاحب الميزان هنا والدعاء من الله تعالى قضاء محسوم، وما ورد من أن (ويل) وادي سحيق في جهنم شديد العذاب هو من التطبيق وليس من التفسير. ويكفي أن يقول الله تعالى لمخلوق ويل لك لشقى.

﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ الطفيف الشيء اليسير، وطفّ الشيء جانبه، ومن أسماء كربلاء: الطف أي طف الفرات وجانبه مما يلي الصحراء، أو الجانب المرتفع منه وهو كتف النهر، فالتطفيف هو أخذ جوانب آلة الكيل أو الوزن وعدم ملئه بالكامل فيحصل عن إنقاصه. وإناء طفّان أي قارب الامتلاء عن الكسائي، وقال الخليل: ((التطفيف: أن يؤخذ أعلاه فلا يتم كيلُه)) وقال ابن فارس في المقاييس: ((طف: يدل على قلة الشيء يقال: هذا شيء طفيف، والتطفيف: نقص المكيال والميزان، قال بعض أهل العلم: إنما سمّي بذلك لأن الذي ينقص منه يكون طفيفاً)).

والتطفيف في الكيل والوزن إنقاصهما عن المقدار المستحق لآخر وفاءً أو استيفاءً، ولعل إطلاق التطفيف عليه لأن ما يسرق بإنقاص الكيل والوزن هو مقدار يسير ولو بلحاظ عاقبتهم الوخيمة، أو لأنه لم يستوف الحق بامتلاء الكيل وإنما قاربه بمقدار يسير، فالمطفِّف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن.

وقد شرحت الآيات الكريمة المراد بالمطففين، وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي أذا كالوا بضاعتهم على الناس ليأخذوا ما لهم، ولم يذكر الوزن للملازمة أو لأن التجار المطففين يشترون كميات كبيرة بالكيل، والمفروض تعدية الكيل بـ ﴿مِنْ﴾ إلا أنه استعمل ﴿عَلَى﴾ ولعله لأن لهم جهة استعلاء وسلطة على الناس، وفي الميزان ((وتعديته بعلى لإفادة معنى الضرر)) ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ ويأخذون حقهم كاملاً أو بزيادة بقرينة ما ذكرناه في استعمال ﴿عَلَى﴾.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي كالوا أو وزنوا ليعطوا للآخرين حقهم فإنهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي ينقصون، مستخدمين لتحقيق ذلك مكرهم وخداعهم أو سلطتهم أو قوتهم أو وفرة مالهم وشركاتهم المهيمنة على الاقتصاد واحتياج الآخرين لما عندهم لاحتكارهم ما يحتاجه الناس ونحو ذلك.

وقد أطلقت الآية لفظ الناس ليشملهم جميعاً ولا تختص حرمة التطفيف بفئة دون أخرى.

ثم يقول الله تعالى متعجباً من غفلة هؤلاء المطففين ولا مبالاتهم بعاقبة أفعالهم، أو إصرارهم على هذا الفعل القبيح المنافي للفطرة: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ﴾ أي ألا يعلم أولئك المطففون ولو احتمالاً وعلى مستوى الظن؛ لأن العقل هنا يلزم بالاحتمال ما دام خطيراً من باب دفع الضرر المحتمل، والظن يعبَّر به عن اليقين كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ٤٦) أو أن التعبير به بلحاظ أن الناس حولوا بأفعالهم هذا اليقين إلى ظن وشك، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (ما خلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت)(١٧)، واستعمال ﴿أُولَئِكَ﴾ للإشارة إلى بعدهم عن الله تبارك وتعالى.

﴿أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة بأهواله التي يشيب لها الرضيع وسيعاقبون على هذا النزر اليسير الذي أخذوه ظلماً ثم تلقيه وراءهم بأقسى العقوبات ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين: ٦) وذلك حين قيامهم من قبورهم وبعثهم للحساب يوم القيامة. وفي هذا التعقيب دلالة على أن منشأ الوقوع في هذه الكبائر حب الدنيا والغفلة عن يوم القيامة وعدم الإذعان العملي بالحساب، وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى مسؤولية الناس جميعاً عن القيام والنهضة لأجل مكافحة هذه الجرائم وإقامة الحق والعدل، وإلا فإن ضررها سيلحق بهم جميعاً، أو لأن الناس متورطون أو متأثرون بهذه الظاهرة بشكل وآخر بين التطفيف في الماديات والتطفيف بالمعنويات، حتى أدّى التطفيف المعنوي إلى تضييع ثروات الأمة ورموزها وعلمائها وكنوزها الفكرية بحيث يحتاج الأمر إلى جمعهم جميعاً ليشهدوا ما تورط به مجتمعهم.

ثم يؤكد الله تعالى الردع عن هذا الفعل بالزجر القوي ﴿كَلَّا﴾ وثم تستمر السورة ببيان بعض أهوال يوم القيامة وأحواله بإيقاعات قصيرة لكنها قوية لإيقاظ الناس من غفلتهم وتحريك وجدانهم كما هو شأن المواعظ المؤثرة، وأكثر ما يربي القرآن الكريم الناس هو بهذه المشاهد يوم القيامة كما هو واضح في القرآن المكي؛ لأنه من دون ترسيخ العقيدة الحقة في قلوب الناس فإن أفعالهم لا تستقيم، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (القلوب أئمة العقول، والعقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء)(١٨).

وقد جعل الله تبارك وتعالى بهذه الآيات الكريمة حداً حاسماً وشنّ حرباً قوية في وقت مبكر من عمر الإسلام(١٩) قبل أن تكون للإسلام دولة وسلطة ونفوذ قوانينه في المجتمع للقضاء على هذا الظلم الذي كان يُرتكب جهاراً في المجتمعات الجاهلية قبل الإسلام، وأطلقها صرخة مدوّية في وجوه الطواغيت والمستكبرين حيث يأكل الأغنياء قوت الفقراء بهذه الطريقة الظالمة بل يصادرون عقائدهم ويمتلكون حتى أرواحهم، لذا وقف المستكبرون والطواغيت في كل جيل بكل قوة للقضاء على النبي (ﷺ) ورسالة الإسلام لأنها ليست فقط عقيدة تنطوي عليها القلوب وإنما ينبثق منها نظام متكامل للحياة يقوض كل مصالحهم اللامشروعة.

إنّ هذه الظاهرة المنحرفة الحقة تتسبب في مفاسد خطيرة:

١ - دينية: لأنها تمحق دين الإنسان وتجرّه إلى الوقوع في معاصٍ كبيرة لا يغفرها الله تعالى لأنّ الفعل من ظلم الناس فيجب أن يسترضيهم جميعاً وأنى له ذلك.

٢ - أخلاقية: لأنها تمسخ الفطرة والأخلاق الإنسانية وتكون سبباً للاتصاف برذائل الاخلاق كالظلم والشُح والانانية وإهانة الغير وغير ذلك.

٣ - اجتماعية: لأنها ستورث البغضاء والحقد إذ إن الإنسان يرفض وقوع الظلم عليه ويحقد على ظالمه، فتحصل قطيعة بين أبناء المجتمع وتنتشر الكراهية قال المتنبي:

وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإنْصَافِ قَاطِعَةً
بَيْنَ الرِّجَالِ وَإنْ كَانُوا ذَوِي رَحِمِ

٤ - أمنية: لأن الحقد المذكور سيجعل المظلومين والمغلوبين على حقوقهم قنابل موقوتة قابلة للانفجار في أي لحظة مما يسبب فقدان الأمن وانهيار السلم المجتمعي.

٥ - اقتصادية: لأن استقرار السوق مبني على الثقة، والأمانة فإذا حلّ التطفيف والغش والخداع والغبن فأن التعاملات ستضعف ويصاب السوق بالركود.

وكان الأنبياء السابقون (صلوات الله عليهم أجمعين) حازمين في محاربة هذا الفساد قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (هود: ٨٤) وكانوا (عليهم السلام) يوصلون الرسالة تلو الرسالة من الله تبارك وتعالى في وجوب الوفاء بالكيل والوزن وعدم بخس حقوق الناس، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (الأنعام: ١٥٢) وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٥) وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٨٥) وقال تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الشعراء: ١٨١ - ١٨٣).

التتمة في الصفحة الثالثة

(١٥) درس التفسير الأسبوعي ليوم الأربعاء من ربيع الثاني ١٤٤٧ المصادف ٢٤/ ٩/ ٢٠٢٥م. (١٦) ثواب الأعمال: ص ١٢٢.
(١٧) من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق (رضوان الله عليه): ١/ ١٩٤. (١٨) بحار الأنوار، للعلامة المجلسي: ١/ ٩٦، باب العقل والجهل، عن كنز الفوائد للكراجكي: ٨٨.
(١٩) بناءً على كون السورة مكية حيث قيل أنها من آخر السور نزولاً في مكة، وقيل أنها من أوائل السور نزولاً في المدينة، والآيات الأول يناسب نزولها في المدينة لكن إيقاع الآيات في وسطها ونهايتها تناسب السور المكية الأولى.

أقول: الآيات الكريمة وردت في رسالة النبي شعيب (عليه السلام) إلى قومه أهل مدين وكانت هذه القضية محور رسالته بعد الدعوة إلى التوحيد ولما أصرّوا على فسادهم نزل بهم العذاب الأليم، وفي ذلك رسالة فحواها أن التوحيد يستلزم العبودية الكاملة لله تعالى في جميع شؤون الحياة ولا يجوز التقليل من شأن هذه المخالفات الشرعية ومنافاتها للتوحيد الخالص.

وهكذا كانت هذه العادة القبيحة متفشية في مجتمع مكة والمدينة قبل ظهور الإسلام، روى علي بن ابراهيم في تفسيره عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (نَزَلَتْ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَسْوَأُ النَّاسِ كَيْلاً، فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ)(٢٠) وروت مصادر العامة مثله عن ابن عباس وأن السورة أول ما نزلت في المدينة(٢١).

وروى الطبرسي (أنه (ﷺ) قدم المدينة وبها رجل يقال له: أبو جهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فنزلت الآيات)(٢٢).

أقول: لعله أراد بالنزول الآيات الأولى فقط كما احتملنا ذلك، وإلا فان السورة مكية على المشهور كما يشهد به سياقها، وربما أراد بالنزول هنا تلاوتها على أهل المدينة حين هاجر اليهم لما رأى ابتلاءهم بالتطفيف فكأنها تتنزل عليهم الآن، ولا مانع من القول بتعدد النزول.

ومن الأحاديث الشريفة الواردة في مغبّة التطفيف ما رواه ابن عباس عن النبي (ﷺ): (ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوّهم، ولا طفّفوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين)(٢٣) وروى القطب الراوندي عن النبي (ﷺ) أنه: (ما من قوم نقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان)(٢٤)، وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) ((يمشي في الأسواق وبيده دِرّة يضرب بها من وجد من مطفف أو غاش في تجارة المسلمين، قال الأصبغ: قلت له يوماً أنا أكفيك هذا، يا أمير المؤمنين، واجلس في بيتك، قال: ما نصحتني))(٢٥).

وعلى عكس ذلك فقد أدّب الشرع المقدس أتباعه على أن يعطوا الآخر أكثر من حقه بأن يرجّح كفة الطرف الآخر إحساناً واحتياطاً ففي صحيحة محمد بن أبي عمير عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (لا يكون الوفاء حتى يُرجّح)(٢٦)، روى الإمام الصادق (عليه السلام) أنه (مرّ أمير المؤمنين (عليه السلام) على جارية قد اشترت لحماً من قصّاب وهي تقول: زدني، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): زدها فإنه أعظم للبركة)(٢٧) وورد في فضل المؤمن الذي يتعامل بهذا الفضل عن النبي (ﷺ) قال: (أفضل المؤمنين رجلٌ سمحُ البيع، سمحُ الشراء، سمح القضاء، سمح الاقتضاء)(٢٨).

وقد جعل الله تبارك وتعالى إقامة العدالة الاجتماعية ورفع الظلم عن الناس وإقامة الموازين بالعدل غرضاً مهماً وأساسياً لبعثة الأنبياء قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥) وقال تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٧-٩) وقد أدبنا الشرع المقدس على الإنصاف حتى مع الخصوم قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٨) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء: ١٣٥).

وقد نهى القرآن الكريم عن التطفيف في مواضع أخرى بتعبير آخر يؤكد بأن الحالة معنى أوسع ولا تختص بالبيع والشراء، ويجعلها قاعدة عامة من قواعد التعامل مع الآخرين وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الأعراف: ٨٥) (هود/ ٨٥) (الشعراء/١٨٣) في عدة مواضع تقدمت عقيب النهي عن التطفيف.

أقول: فمجيء النهي عن البخس بعد النهي عن التطفيف من باب ذكر القاعدة العامة بعد ذكر أحد مصاديقها، أو من ذكر العام بعد الخاص، إذن حالة التطفيف وبخس الناس اشياءهم لا تختصّ بالبيع والشراء وإنما تشمل كل التصرفات المادية والمعنوية، فإن من يستوفي حقه كاملاً لكنه لا يعطي الحق الذي عليه كاملاً فهو مصداق للمطفّف في أي موقع كان سواء في ذلك العالم الديني أو ذو السلطة أو الموظف أو التاجر أو المهني، فالحرب على التطفيف شامل لكل مطفّف وهو الذي يقال عنه في المصطلح (الكيل بمكيالين).

وأسوأ أشكال التطفيف حينما يتحالف طلاب الدنيا من علماء الدين والسلطة الحاكمة وأهل المال والنفوذ لبخس الشعب حقوقه وخذلان الدين والأخلاق، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن أعظم الخيانة خيانة الأمة، وأفظع الغش غش الأئمة)(٢٩).

وحينئذ لا يكون معنى التطفيف أخذ النزر اليسير بل المأخوذ هنا عظيم.

ومن المؤسف أننا نجد أن التطفيف حالة عامة البلوى وفي جميع مجالات الحياة فالعالم يريد الثناء عليه وإنجازه وعطائه والمكافأة عليه لكنه يغمط حق غيره ويقلل من شأنه، والأجير لغيره يحاول تضييع وقت العمل وهدره بينما إذا استأجر شخصاً فإنه يراقبه حتى لا يضيّع شيئاً من الوقت، والدائن يستمر في الطرق على المدين حتى يستوفي حقه لكنه يماطل ويتهرب إذا كان هو المدين.

وقد طبّقته إحدى الروايات عن الإمام الصادق (عليه السلام) على الخمس في الأرباح والغنائم، لأن الناس يستوفون أرباحهم وغنائمهم وهي رزق من الله تعالى كاملة لكنهم لا يؤدون خمس أموالهم(٣٠).

وروي في مجمع البيان عن ابن مسعود وفي مصادر العامة عن سلمان (رضوان الله تعالى عليهما) قوله: (إنما الصلاة مكيال فمن أوفى أوفي له، ومن طفف فقد سمعتم ما قال الله في المطففين)(٣١).

فمن يقدّم عملاً منقوصاً مشوباً ويريد أن يجعله شكراً لله تعالى على نعمه ووفاءً لحقوق العبودية إلى الله تبارك وتعالى ويطلب عليه جنة عرضها السماوات والأرض فهو مصداق للمطفّف.

إن مقتضى الوسطية التي وصف الله تبارك وتعالى بها الأمة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) الإنصاف والاعتدال في الحقوق والواجبات، ولتحقيق ذلك فقد أمر المعصومون (عليهم السلام) بأن تجعل ضميرك ووجدانك هو الحكم، ومنها ما في وصية أمير المؤمنين (عليه السلام) لولده الحسن (عليه السلام) (اجعل نفسك ميزاناً في ما بينك وبين غيرك، وأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يُحسن إليك واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك)(٣٢).

ومن التطفيف مطالبة الناس بالإنصاف وعدم إعطائه من النفس، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (ليس من الإنصاف مطالبة الإخوان بالإنصاف)(٣٣). وتؤكد الأحاديث الشريفة على أن إنصاف الناس من النفس صفة صعبة على النفس، قال الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث له: (ألا أخبركم بأشد ما فرض الله على خلقه، فذكر ثلاثة أشياء أولها: إنصاف الناس من نفسك)(٣٤).

لكن الوصول إليها ليس مستحيلاً بفضل الله تبارك وتعالى، وقد قام الأئمة المعصومون (عليهم السلام) بتربية الأمة على هذا النهج، روي أن الإمام الحسين (عليه السلام) كان يذهب إلى بيت الله الحرام ماشياً على قدميه تعظيماً له وكان يتجنب الطريق العام شفقة على الناس لأنهم كانوا ينزلون عن دوابهم إذا رأوه تعظيماً وهيبة له (عليه السلام) فيشق ذلك على بعضهم، فقيل له في ذلك، فقال (عليه السلام): أخشى أن آخذ من رسول الله (ﷺ) ما لا أعطي مثله(٣٥) وقيل للإمام السجاد (عليه السلام): (إذا سافرت كتمت نفسك أهل الرفقة؟ فقال: أكره أن آخذ برسول الله ما لا أعطي مثله)(٣٦).

ومن المؤسف أن حالة البخس وعدم الإنصاف سائدة فحينما يختلف مع آخر وقد يكون عالماً عاملاً مباركاً فإنه يتعامى عن كل فضائله وإنجازاته ويركز على ما يعتقد أنه خطأ صدر منه وقد لا يكون خطأ وإنما رآه كذلك بعين الكراهية والعداوة.

وهذا الحالة متفشية في الأوساط السياسية فأن المعترضين يركزون على السلبيات وينشرونها على وسائل الاعلام ويتغافلون عن الإيجابيات.

فعلينا أن نكون دقيقين في سلوكنا وتصرفاتنا، مثلاً نحن الحوزة العلمية إذا لم نكن نبذل الجهد في نصرة الدين وخدمة المؤمنين بقدر ما نتوقع من عطاء الله تعالى والاحترام والتكريم الذي نحصل عليه من الناس فنحن مطففون، ولا تغرّنا العناوين و(الشأنية) ونحو ذلك، قال الإمام الباقر (عليه السلام) في وصيته لجابر بن يزيد الجعفي: (واعلم بأنك لاتكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن أعرض نفسك على [ما في] كتاب الله، فإن كنت سالكاً سبيله، زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه فاثبت وأبشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك. وإن كنت مبايناً للقرآن فماذا الذي يغرك من نفسك)(٣٧).

والشاب الذي يوفر له أهله ما يحتاجه من مسكن ومأكل وملبس وأسباب الراحة وهو لا يؤدي ما عليه من برّ الوالدين وأداء واجباته والاهتمام بدراسته فهو مطفّف وهكذا.

(٢٠) تفسير البرهان: ١٠/ ١٢١ عن تفسير القمي: ٢/ ٤١٠. (٢١) الدر المنثور: ٨/ ٤٤١ / ط. دار الفكر. (٢٢) مجمع البيان: ١٠/ ١٦١. (٢٣) الدر المنثور: ٨ / ٤٤٢ ط. دار الفكر.
(٢٤) بحار الأنوار: ٣٧ / ٣٧٧ ح١٤ عن دعوات الراوندي: ٢٨. (٢٥) دعائم الإسلام: ٢/ ٥٣٨ / ح ١٩١٣. (٢٦) الكافي: ٥ / ١٥٩ / ٥ح. (٢٧) الكافي: ٥/ ١٥٢، ح ٨.
(٢٨) كنز العمال: ٧٠٥. (٢٩) نهج البلاغة: الكتاب (٢٦). (٣٠) تفسير البرهان: ١٠ / ١٢٢ ح ٤. (٣١) الدر المنثور: ٨ / ٤٤٢. (٣٢) نهج البلاغة: ٣ / ٤٥، الكتاب (٣١).
(٣٣) بحار الأنوار: ٧٥ / ٢٧. (٣٤) الكافي: ٢ / ١٤٥، ح ٦ من باب: الإنصاف والعدل. (٣٥) مناقب ابن شهرآشوب: ٣ / ٣٠٠. (٣٦) مناقب ابن شهرآشوب: ٣ / ٣٠٠.
(٣٧) بحار الأنوار: ٧٥ / ١٦٢- ١٦٣.

الاحتفال لمرور خمسة عشر قرناً على ميلاد النبي (ﷺ)

وجّه المرجع الديني سماحة الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) ممثلياته ومكاتبه في دول العالم بأن تكون الاحتفالات بذكرى المولد النبوي الشريف هذا العام واسعة ومميزة لخصوصية كونها بمناسبة مرور ألف وخمسمائة عام أي خمسة عشر قرناً على مولده المبارك.

وأكّد سماحته على أن تتركز برامج الاحتفالات على بيان سيرته العطرة وأخلاقه العظيمة التي أثنى عليها الله تبارك وتعالى بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) وضرورة التأسي بها امتثالاً لقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

كما أكّد سماحته على توضيح معالم القيادة النبوية المباركة ومواقفه (ﷺ) المبدئية وعزيمته التي لا تلين في إقامة دين الله تعالى في أرجاء المعمورة فان ذلك غرض بعثة الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) قال تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣) لتكون مدرسة ينهل منها القادة والمصلحون والعلماء الربانيون.

إن بيان هذه الجوانب العظيمة من سيرة النبي (ﷺ) واغراض دعوته المباركة والمبادئ الإنسانية التي جسدها هو الرد الحاسم على التشويه والدس الذي ألحقه خصومه به من السابقين واللاحقين.

وشدّد سماحته على اغتنام المناسبة لتوحيد المسلمين تحت رايته المباركة، ونبذ كل عوامل الفرقة والتشظي والعداوة والبغضاء التي كانت تؤلم رسول الله (ﷺ) وتحزن قلبه الشريف، وبذل وسعه للقضاء عليها، قال الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢) وقال تعالى محذراً من الاختلاف والتنازع ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦) وقال تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ (النحل: ٩٢).

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يسرّ قلب رسول الله (ﷺ) ولا يسوؤه إنه نعم المولى ونعم النصير.

فائدة: شرح سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) هذه الأفكار في تفسير (من نور القرآن) عند تفسير هذه الآيات المباركة، وفي كتابه (الأسوة الحسنة للقادة والمصلحين) و(دور الأئمة في الحياة الإسلامية) و(النبي والعترة في القرآن الكريم). فيحسن مراجعتها والاستفادة منها.

مكتب سماحة المرجع الديني
الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)
٢ ربيع الأول ١٤٤٧

تتمة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (عبس: ١) تنزيه رسول الله (ﷺ)

ثيابه من تحت فخذيه، فقال له رسول الله (ﷺ): أخفت أن يمسك من فقره شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يوسخ ثيابك؟ قال: لا؟ قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله إن لي قريناً يزيّن لي كل قبيح ويقبّح لي كل حسن، وقد جعلت له نصف مالي، فقال رسول الله (ﷺ) للمعسر: أتقبل؟ قال: لا، فقال له الرجل: لم؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك)(٨).

قال السيد المرتضى (رضوان الله عليه): (ليس في ظاهر الآية دلالة على توجهها إلى النبي (ﷺ)، بل هو خبر محض، لم يصرح بالمخبر عنه، وفيها ما يدل على أن المعني بها غيره، لأن العبوس ليس من صفات النبي (ﷺ)، مع الأعداء المباينين، فضلاً عن المؤمنين المسترشدين. ثم الوصف بأنه يتصدى للأغنياء، ويتلهى عن الفقراء، لا يشبه أخلاقه الكريمة)(٩).

فهذه الروايات موضوعة من قبل خصوم النبي (ﷺ) من الذين يحنّون إلى أيام الجاهلية كبني أمية وأمثالهم، ومن أجل التخلص من دين الإسلام بتشويه صورة الرسول العظيمة، وقد وضع الأمويون خطة ممنهجة للوصول إلى هذا الغرض، روى ابن المغيرة بن شعبة قال: (دخلت مع أبي على معاوية - وكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إلي، فيذكر معاوية وعقله، ويُعجب بما يرى منه - إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا. فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني جئتُ من عند أكفر الناس وأخبثهم! قلت: وما ذاك؟! قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت سناً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، و نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه.

فقال: هيهات هيهات، أي ذكر أرجو بقاءه! ملكَ أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشة - يعني النبي محمداً (ﷺ) ليُصاح به كل يوم خمس مرات (أشهد أن محمداً رسول الله)، فأيّ عمل يبقى وأيّ ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك؟! لا، والله إلاّ دفناً دفناً)(١٠)، وهذا هو هدفهم الاستراتيجي وقد عملوا عليه بقوة وأحدثوا في الإسلام فتقالم يرتق.

مضافاً إلى أنهم أرادوا تبرئة صاحبهم (١١) الذي نزلت فيه الآية الكريمة، ففي مصادر الإمامية كتفسير علي بن ابراهيم قال: (نزلت في عثمان وابن أم مكتوم، وكان ابن أم مكتوم مؤذناً لرسول الله (ﷺ)، وكان أعمى، فجاء إلى رسول الله (ﷺ) وعنده أصحابه، وعثمان عنده، فقدمه رسول الله (ﷺ) على عثمان، فعبّس عثمان وجهه وتولى عنه، فأنزل الله: (عَبَسَ وَتَوَلَّى [يعني عثمان] أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) أي يكون طاهراً زكياً (أَوْ يَذَّكَّرُ) قال: يذكره رسول الله (ﷺ) (فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى)(١٢).

أقول: ورواه غيره، واكتفى بعضهم بكونه من بني أمية كالطوسي في التبيان والطبرسي في مجمع البيان وأبي الفتوح الرازي (ت: ٥٨٨) وهو من مشايخ ابن شهر آشوب في روح (روض) الجنان، وعمّم السيد المرتضى في تنزيه الأنبياء بأنه من أصحاب الرسول الله (ﷺ).

وحاول بعض أعلام العامة تبرير رواياتهم كالذي نقله الطبرسي عن الجبائي قال: (في هذا دلالة على أن الفعل يكون معصية فيما بعد لمكان النهي، فأما في الماضي فلا يدل على أنه كان معصية قبل أن ينهى عنه، والله سبحانه لم ينهه إلا في هذا الوقت. وقيل: إن ما فعله الأعمى نوع من سوء الأدب، فحسن تأديبه بالإعراض عنه، إلا أنه كان يجوز أن يتوهم أنه أعرض عنه لفقره، وأقبل عليهم لرياستهم تعظيماً لهم، فعاتبه الله سبحانه على ذلك)(١٣)

أقول: وصف الله تعالى رسول الله (ﷺ) بالخلق العظيم سابق على نزول هذه الآيات لأنّ الآية في سورة القلم (التي اتفقت الروايات المبينة لترتيب نزول السور على أنها نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك، فكيف يعقل أن يعظم الله خلقه في أول بعثته ويطلق القول في ذلك ثم يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخُلقية ويذمه بمثل التصدي للأغنياء وإن كفروا والتلهي عن الفقراء وإن آمنوا واسترشدوا)(١٤)، وإن هذا الفعل الشنيع يحكم العقل بقبحه وهو مناف للفطرة النقية وتنفر منها الطباع السليمة، ولا تحتاج إلى نهي لبيانها، وإن بعض الآيات التي أوردناها في أدب النبي (ﷺ) وتأديبه نزلت قبل هذه الحادثة كآية ﴿فَاصْدَعْ﴾ (الحجر: ٩٤) النازلة في أول الدعوة العلنية فهل ترى أن النبي (ﷺ) خالف أمر ربّه؟

وقيل أن إقبال النبي (ﷺ) على سادة قريش وعدم مبالاته بالاعمى الذي قاطعه بالاسئلة كان طمعاً في اسلامهم فيكون سبباً لكسب كثير من الناس التابعين لهم إلى الإسلام وبذلك يدفع الضرر والعذاب عن المسلمين.

وقال في مجمع البيان (إن العبوس والإنبساط مع الأعمى سواء، إذ لا يشق عليه ذلك، فلا يكون ذنباً، فيجوز أن يكون عاتب الله سبحانه بذلك نبيه (ﷺ) ليأخذه بأوفر محاسن الاخلاق، وينبهه بذلك على عظم حال المؤمن المسترشد، ويعرّفه أن تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه أولى من تأليف المشرك طمعاً في إيمانه.

وقيل: إن ما فعله الاعمى نوعاً من سوء الأدب فحسن تأديبه بالاعراض عنه إلا أنه كان يجوز أن يتوهم أنه اعرض عنه لفقره، وأقبل عليهم لرياستهم تعظيماً، فعاتبه الله سبحانه)

أقول: لوكان الفعل راجحاً ومبرراً لما استحق هذا الزجر الشديد ومما يضعّف هذه الروايات أن رواتها لم يكونوا شهوداً على الواقعة لأنهم غير موجودين يومئذ كهشام بن عروة وابيه، أو كانوا أطفالاً صغاراً لا يحسنون النقل كابن عباس الذي ولد قبل الهجرة بثلاث سنين والحادثة وقعت في مكة، أو عائشة التي لم تكن في بيت رسول الله (ﷺ) يومئذ.

ثم إن وظيفة النبي (ﷺ) تعليم الناس وهدايتهم وإيصال الرسالة اليهم فكيف يعرض عنهم ويهملهم، وأن هذا التصرف يوجب نفور الراغبين في اعتناق الدين الجديد وعدم ثقتهم بالقائد الذي يتوقعون منه الالتزام التام بالمبادئ الإنسانية، والآيات الكريمة تشدد التحذير من انحراف القائد عن الحق ولو يسيراً قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٧٤-٧٥) وقال تعالى ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة: ٤٧).

(٨) الكافي: ج ٢ / ص ٢٦٢، باب فضل فقراء المسلمين. (٩) حكاه في مجمع البيان: ج ١٠/ ص١٤٦ عن تنزيه الأنبياء: ص ١٦٦. (١٠) الصحوة: لصباح علي البياتي: ٤٠٣، نقلاً عن الموفقيات: ٥٧٧.
(١١) وكم لهم في ذلك من روايات في تنزيه رموزهم ولو بنسبة القبيح إلى النبي (ﷺ) كالذي رووه عن الأسود بن سريع، قال: (أتيت النبي (ﷺ) فقلت يا رسول الله إني قد حمدت ربي تبارك وتعالى بمحامد ومدح وإياك، قال: هات ما حمدت به ربك قال: فجعلت أنشده فجاء رجل أدلم فاستأذن قال فقال النبي (ﷺ): بين بين قال فتكلم ساعة ثم خرج قال فجعلت أنشده قال ثم جاء فاستأذن قال فقال النبي (ﷺ): بين بين ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً قال قلت: يا رسول الله من هذا الذي استنصتني له قال عمر بن الخطاب هذا رجل لا يحب الباطل (مسند أحمد بن حنبل: المجلد ٣ / ح١٥٠٣٣).
(١٢) البرهان في تفسير القرآن: ج ١٠ / ١٠٥ عن تفسير القمي: ٢/ ٤٠٤. (١٣) مجمع البيان: ج١٠ / ص ١٤٦. (١٤) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠ / ٢٢٣.

يمكنكم الاطلاع على آخر اخبار المرجعية وبدايات الاشهر العربية من خلال الموقع الالكتروني الرسمي (yaqoobi.com) وقناة [illegible]
وتطبيق (ضوء الامل) للهواتف النقالة كما يمكنكم مراسلة مكتب المرجعية على البريد الالكتروني الرسمي ([illegible].com)
العنوان: النجف الأشرف - نهاية شارع الرسول - مؤسسة الامام الباقر (ع) خلف مكتبة الامام [illegible]

جميع الحقوق محفوظة لموقع سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي